علي باشـــــــا مبارك

١٨٢٤ — ١٨٩٣

زعيم نهضة العلم والتعليم فى عصر اسماعيل

بقلم الاستاذ الجليل : عبد الرحمن بك الرافعى

﴿ تتمة البحث ﴾

معمل الكيمياء والطبيعة

وأنشأ بدرب الجماميز أيضاً معملا للكيمياء والطبيعة، لتوسيع مدارك التلاميذ فى العلوم الطبيعية وإطلاعهم على تجاربها ومشاهداتها ، والمران على استعمال الآلات الرياضية والطبيعية.

أعماله الهندسية

إن شهرة على باشا مبارك تقوم فى الغالب على خدماته الجليلة للتعليم ، على أن له مآثر أخرى فى أعمال العمران التى تمت فى عهد اسماعيل، سواء فى الرى أم فى تنظيم القاهرة وغيرها .

فليس يخفى أنه بولايته وزارة الأشغال عهد إليه الخديوى بمعظم الأعمال التى استحدثت فى ذلك العهد .

فاشترك فى تنظيم القاهرة وتوسيع شوارعها وحاراتها ، وإنشاء أحيائها الجديدة ، ومعظم الأعمال التى تمت من هذا القبيل نفذت فى عهده ، مثل شارع محمد على ، وميدانه ، وشوارع الأزبكية ، وميدانها ، والشوارع المنشأة بعابدين ، وباب اللوق ، وغيرها مما هو بداخل المدينة وخارجها .

قال فى هذا الصدد: « وجرى العمل على ذلك ، فظهرت كل هذه المبانى الحسنة، والشوارع المستقيمة، المحفوفة بالأشجار والخضرة النضرة، المستوجبة للقادمين على المدينة انشراح الصدور، والفرح والسرور، وأزيل ما كان بجهتها البحرية من التلال، التى كانت تمتد من جهة الفجالة إلى قرب باب الفتوح ، ثم تبرع الخديوى اسماعيل للراغبين بمواضع كثيرة، فأنشأوا بها المبانى

المشيدة ، والبساتين المديدة ، وناهيك بقصور الاسماعيلية ، ودورها ، وبساتينها وشوارعها التى يكل الوصف عن محاسن بهجتها » .

واشترك فى استحداث الأنارة بغاز الاستصباح، وإقامة وابور المياه، لتغذية القاهرة بماء الشرب الصالح بواسطة شركتى النور والمياه ، وإقامة (كوبرى) قصر النيل البديع ،وغير ذلك من الأعمال النافعة .

وساهم أيضاً فى أعمال العمران بمدينة الاسكندرية والسويس ، وما أقيم فى المديريات من الدواوين ، والجسور ، والقناطر ، والترع ، ومن أعظمها شأناً ترعة الابراهيمية ، وترعة الاسماعيلية ، قال فى هذا الصدد « هذه الأعمال جميعها أو أكثرها، كنت أباشر أوامرها من رسومات وشروط مع المقاولين ونحو ذلك لتعلقها بديوان الأشغال ، فكنت فى مدة إحالة هذه الدواوين على،مشغولا بالمصالح الأميرية ، وتنفيذ الأغراض الخديوية ، ليلا ونهاراً ،حتى لا أرى وقتاً ألتفت فيه لأحوالى الخاصة بى ، ولا أدخل بيتى إلا ليلا ، بل كنت أفكر فى الليل فيما يفعل بالنهار » .

وكان متولياً وزارة الأشغال عند افتتاح قناة السويس ، فعهد إليه الخديوى اسماعيل باعداد معدات حفلاته الفخمة .

ومن أعماله فى ديوان الأوقاف أنه حكر كثيراً من أراضى القاهرة للراغبين فى بنائها مقابل حكر ضئيل يدفعونه كل سنة ، فعمرت جهات كانت من قبل خراباً بلقعاً ، وأقيمت المبانى والعمائر فى أخطاط عديدة من المدينة .

وبادارته لمصلحة السكك الحديدية، اشترك فى مد كثير من الخطوط الحديدية وإنشاء محطاتها

انفصاله عن الوزارة ثم عودته

انفصل المترجم عن إدارة السكك الحديدية، ثم عن وزارة المعارف والأشغال ، سنة ١٨٧٠ ثم عن الأوقاف سنة ١٨٧١، لخلاف وقع بينه وبين اسماعيل صديق باشا (المفتش) وزير المالية المشهور بحظوته عند الخديوى اسماعيل ، ذلك أن المفتش رغب فى أن يضم إيراد السكك الحديدية إلى وزارة المالية ، فلم يقبل على باشا مبارك هذا الضم، إلا إذا تعهدت المالية بجميع نفقات المصلحة ، فوقع الخلاف بين الرجلين ، ووشى اسماعيل صديق بالمترجم عند الخديوى ، فأدى ذلك إلى انفصاله عن الوزارات التى كان يقوم بأعبائها ، ولزم بيته ، على أن انفصاله لم يدم أكثر من عدة أشهر ، ولعل الخديوى شعر بالفراغ الذى ترتب على انفصاله عن العمل ، ولم تجد بين وزرائه من يسد هذا الفراغ ؛ فعهد إليه ثانياً فى (١٣ مايو سنة ١٨٧١) بادارة

للدارس ، ثم بالنظر على ديوان الأوقاف ، وبعد قليل أعيد إلى ديوان الأشغال ؛ وبقي يتولى وزارة المعارف إلى أغسطس سنة ١٨٧٢ .

ثم عن للخديوى أن يعين ابنه حسين كامل باشا (السلطان حسين كامل) ناظراً لهذه الدواوين، وبقي للترجم متولى شؤونها، وصار منصبه «مستشاراً» لها، وبعد قليل انفصل ديوان الأشغال برئاسة الأمير حسين كامل، وجعل للترجم وكيلا له .

ثم عين للترجم عضواً بالمجلس الخصوصي، الذى كان بمنزلة مجلس الوزراء، وبعد قليل انفصل عنه لما ألقاه فى حقه الواشون، كاسماعيل باشا صديق وأضرابه، وما أرجفوا به، من أن كتابه (نخبة الفكر) الذى كلفه الخديوى تأليفه عن النيل، مشتمل على نقد الحكومة الخديوية، وتقبيح سياستها ، فلزم بيته ثانياً .

وفى شهر صفر سنة ١٢٩١ (مارس سنة ١٨٧٤) جعل رئيساً لقسم الهندسة بديوان الأشغال ، ولما ألحق هذا الديوان بوزارة الداخلية، التى تولاها الأمير محمد توفيق، وولى عهد الأريكة الخديوية ، جعل للترجم مستشاراً له ؛ ثم استقل ديوان الأشغال فبقى للترجم مستشاراً للديوان.

ولا شك أن تعيين على باشا مبارك فى هذه المناصب الثانوية، كان نتيجة الوشاية التى ألقاها اسماعيل صديق فى حقه عند الخديوى .

فى وزارة نوبار باشا

ولما وقعت بمصر الأحداث المالية ، وحدث التدخل الاجنبى، وعينت لجنة التحقيق الدولية كان من مطالب اللجنة تنازل الخديوى عن سلطته المطلقة، فى أمر النظار ، فتألفت وزارة نوبار باشا الأولى، سنة ١٨٧٨، وهى الوزارة التى دخلها وزيران أوربيان، يمثلان المصالح الأجنبية .

واشترك للترجم فى تلك الوزارة، إذ تولى للمعارف والأوقاف، واستأنف عمله فى إحياء نهضة التعليم ، فشرع فى بناء بعض المدارس الابتدائية ، كمدرسة طنطا، ومدرسة المنصورة ، وظل قائماً بعمله فى جو مملوء بالاضطرابات والارتباكات، إلى أن استهدفت وزارة نوبار باشا إلى سخط الأمة ، وثار عليها الضباط ثورتهم الأولى ، فى فبراير سنة ١٨٧٩، وخلفتها وزارة توفيق باشا القصيرة المدى .

ثم دعى شريف باشا الوزير للشهور، إلى تأليف الوزارة الجديدة، استجابة لمطالب الأحرار، فألف وزارته المعروفة بالوزارة الوطنية .

وكان طبيعياً أن لا يكون للترجم من أعضائها ، لأن الوزارة النوبارية سقطت، مغضوباً عليها من الشعب ، إذ كانت مهتمة بمسألة الدول الأجنبية .

وفى عهد وزارة شريف باشا اشتدت الأزمة السياسة ، بين الخديوى اسماعيل والدول الأوربية ، وانتهت بخلعه نزولا على إرادة الدول .

فى عهد الخديوى توفيق

وبعد أن تولى توفيق باشا مسند الخديوية ، وعهد إلى رياض باشا تأليف الوزارة ؛ كان على باشا مبارك عضواً فيها ، متقلداً وزارة الأشغال ، فبذل جهداً ممدوحاً فى تنظيم هذه الوزارة والقيام بكثير من أعمال الرى والعمران .

الثورة العرابية

وفى عهد وزارة رياض ، هبت عواصف الثورة العرابية ، ولم يكن على باشا مبارك من أنصار الثورة ، بل كان يميل إلى الروية وأخذ الامور بالحكمة والهوادة ، ونصح العرابيين بالاعتدال ؛ فلم يسمعوا له نصحاً ، وقد تبين أنه كان أبعد نظراً منهم ، لأنه لا يخفى أن التطرف والشطط ، فى مسلك الثورة العرابية ، كانا من الاسباب التى أدت إلى كارثة الاحتلال .

لم يكن المترجم إذن من أنصار الثورة ، بل كان عضواً فى وزارة رياض باشا ، التى تحركت الثورة لمناوأتها وإسقاطها ، وقد سقطت فعلا نزولا على إرادة الجيش ، وألف شريف باشا الوزارة الجديدة .

ومع أن شريف باشا كان يقدر كفاءة على مبارك باشا واستقامته وإخلاصه ، إلا أنه لم يشركه فى الوزارة ، لأنه كان عضواً فى وزارة رياض المغضوب عليها من الشعب ، وهكذا قدر على المترجم أن يكون عضواً فى الوزارتين اللتين هبت عليهما عواصف الثورة ، واستقالتا نزولا على إرادة الثوار .

فالأولى وزارة نوبار باشا التى سقطت بتأثير ثورة الضباط فى عهد إسماعيل ، والثانية وزارة رياض التى سقطت نزولا على إرادة العرابيين .

ولما استقالت وزارة شريف وأعقبتها وزارة محمود سامى باشا البارودى ؛ ظل على مبارك بعيداً عن الوزارة ، وفى عهد وزارة البارودى جاء الأسطول البريطانى إلى ثغر الاسكندرية ، ثم تلاحقت الأحداث إلى أن رزئت البلاد بالاحتلال الانجليزى .

ولما قامت الحرب بين العرابيين والانجليز ، وانحاز الخديوى توفيق باشا إلى الاحتلال ، انعقدت جمعية عمومية فى القاهرة ، تضم اعيان البلاد وذوى المكانة فيها ؛ وحضر على باشا مبارك هذه الجمعية ، وكان ضمن الوفد الذى انتدبته الجمعية للسفر إلى الاسكندرية ، ومقابلة الخديوى توفيق باشا لابلاغه قرارات الجمعية ، فلما وصل إلى الاسكندرية سعى فى طريقة لتهدئة الحالة فلم ينجح ، فانحاز الى الخديوى .

فى وزارة شريف باشا الرابعة

ولما ألف شريف باشا وزارته الرابعة سنة ١٨٨٢ عقب الاحتلال كان المترجم ضمن أعضائها ، وتقلد وزارة الأشغال ، فعنى بأعمال الرى والعمران كما كان شأنه ، كما تولى هذه الوزارة .

ووزارة شريف باشا هى التى استقالت احتجاجاً على سلخ السودان عن مصر ، فالمترجم يناله جانب من الموقف المشرف الذى وقفه شريف باشا ، بتقديم استقالته التاريخية .

وقد اعتزل على مبارك المناصب أثناء وزارة نوبار باشا التى خلفت وزارة شريف وتقلدت الحكم من سنة ١٨٨٤ إلى سنة ١٨٨٨ .

فى وزارة رياض باشا

وبعد استقالة نوبار تولى رياض باشا الوزارة ، فكان على باشا مبارك ضمن أعضائها وزيراً للمعارف العمومية ، وهى الفترة التى ظهر فيها كتابه الخالد .. (الخطط التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة الشهيرة) .

وهو دائرة معارف لخطط مصر وآثارها وجغرافيتها وتاريخها فى عصورها القديمة والحديثة ، ويعد تكملة وتجديداً لخطط المقريزى ، ولكتاب تخطيط مصر الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية ، وفيه وصف شامل لمدن مصر ، وقراها ، ونيلها ، وترعها ، وبحيراتها ، وسواحلها ، وتخطيط كامل لأحياء القاهرة ، وشوارعها ، ودروبها ، وميادينها ، وما احتوت عليه من المبانى ، والمساجد ، والزوايا ، والأضرحة ، والربط ، والتكايا ، والأسبلة ، والقصور ، والوكائل ، والحمامات ، والكنائس ، والأديرة ، والمدارس ، والمكاتب ، مع تراجم علماء مصر وشعرائها وأدبائها وحكامها وأمرائها ، ومرجعه فى هذه الموسوعة الكبرى ، كتب التاريخ والخطط ، قديمها وحديثها ، وحجج الأوقاف والأملاك ومباحثه ومشاهداته ، وماوجده مسطوراً على الأحجار والجدران ، ولئن قيل إن العلامة على باشا مبارك استعان فى وضع الخطط بطائفة من المهندسين من تلاميذه ومرؤوسيه فى وزارة الأشغال والمعارف ، فذلك لا ينقص من فضله ، ولا يقلل من عظم العمل الذى اضطلع به ، وحسبه أن إرادته وجهت مساعديه إلى معاونته فى البحث والتنقيب ، وروحه تتمثى فى جميع أبواب الكتاب ومباحثه .

ونقع الخطط التوفيقية فى عشرين مجلداً ، ظهرت ما بين سنتى ١٣٠٥ إلى سنة ١٣٠٦ (١٨٨٧–١٨٨٩) . أفرد المؤلف الأجزاء الستة الأولى للقاهرة ، والجزء السابع للاسكندرية . والأجزاء الأخرى لبقية مدن القطر المصرى وقراه ، وخصص الجزء الثامن عشر لمقياس النيل ، والتاسع عشر لترع مصر ورياحانها ومنشآت الرى فيها ، والعشرين لنقودها القديمة والحديثة ، وبالجملة

فهذا الكتاب غرة فى تاريخ مصر العلمى، ومأثره خالدة للمترجم، وهو مرجع لكل باحث فى شؤون مصر العلمية والهندسية والتاريخية .

واستأنف المترجم جهوده فى عهد وزارة رياض باشا لنشر التعليم وإنشاء المدارس ، ومن أجل أعماله فى هذا العهد تقريره طبع كتاب (مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الانسان) تأليف العلامة (محمد قدرى باشا)، كان هذا الكتاب الجليل مخطوطاً، فرأى العلامة على باشا مبارك أن يخرجه للناس منشورا لتعم فائدته ، فاشتراه من ورثة المرحوم قدرى باشا، وطبعه سنة ١٨٩٠ على نفقة الوزارة ، وقررت تدريسه فى مدرسة الحقوق، ودار العلوم ، فأسدى بذلك خدمة عظمى للعلوم الشرعية، والقانونية ، وللنهضة العلمية ، والتشريعية .

ولما استقالت وزارة رياض باشا لزم المترجم بيته ، ثم سافر إلى بلده لتفقد أملاكه وإصلاحها بعد أن تركها وأهمل شأنها طوال السنين لاشتغاله بالمصالح العامة ، وهناك مرض بداء المثانة فعاد إلى مصر .

وفاته

وألح عليه المرض إلى أن وافته المنية بمصر فى منزله بالحلمية الجديدة، فى ١٤ نوفمبر سنة ١٨٩٣ ، فانطفأت الشعلة التى أضاءت البلاد بأنوار العلم والعرفان ، نيفاً وأربعين سنة ، وأقفلت المدارس حدادا على أبيها ، وارتجت البلاد حزناً على فقيدها ، وانتقل المترجم إلى عالم الخلود ، تاركا ذكرى مجيدة، حافلة بما أداه لمصر من جلائل الأعمال؟

عبد الرحمن الرافعى

واجبك . . ! هل أديته ؟

إنك ستؤديه بلا ريب ...

أيها الشباب المثقف !

إن مجلة « المعرفة » سبيلكم إلى الثقافة الصحيحة ، وهى المجلة المصرية التى يضطلع بأعبائها الشاقة أحد مواطنيكم ؛ فليكن تعضيدكم إياه مشجعاً له ولغيره . . على إحياء القومية المصرية

هذا واجبكم فأدوه